اصلاح خطأ قديم مرت عليه قرون

في نشأة فن المقامات

تمهيد

المعروف في جميع الدوائر الأدبية ان بديع الزمان الهمذاني هو اول من انشأ فن المقامات ، وهي القصص القصيرة المسجوعة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة ادبية، او نزعة فلسفية ، او خطرة وجدانية ، او لمحة من لمحات الدعابة والمجون ، ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان الى هذا الفن ، وانما رأيت من يطل سبقه بنزعته الفارسية ، اذا كان الفرس فيما يظن بعض الناس ، احرص من العرب على القصص وأعرف بصنوع الأحاديث

ولكني عثرت منذ عامين على نص مهم يغير وجه المسألة ، ثم استطلته واتفقت بقيته في كتابي الذي وضعته بالفرنسية عن النثر في القرن الرابع ، والى القارىء تفصيل القول في كشف ذلك الخطأ القديم

منشأ الغلط

في رأيي أن الحريري هو الذي اذاع هذا الغلط ، ثم آمن الناس بقوله اذ كان اشهر من اقبل الجمهور عليه من كتاب المقامات ، وهو في مقدمة مقاماته ينسب الى بديع الزمان فضل السبق اذ يقول :

« وبعد فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه ، ورخصت مصابيحه ، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان ، رحمه الله تعالى ، وعزا الى أبي الفتح الاسكندري نشأتها ، والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تعرف ، فأشار من اشارته حكم ، وطاعته غنم ، الى ان أُلبسه مقامات اتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الظليع » الى ان قال : « هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سبّاق غايات وصاحب آيات ، وان المتصدي بعده لانشاء مقامة ، ولو أُوتي بلاغة قدامة ، لا يعترف الا من فضائله ، ولا يسري ذلك المسرى الا بدلالته ، ولله در القائل :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة يسعدني شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقات الفضل للمتقدم[1]

ابو دريد شعر المبرع

وقد وصلت الى ان بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وانما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ . والى القارىء النص الذي اعتمدت عليه في تحرير هذه المسألة :

قال ابو اسحق الحصري حين عرض لكلام بديع الزمان :

«كلامه غض المكاسر ، انيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفاً ، والهوى يشقه ظرفاً ، ولما رأى ابا بكر محمد بن الحسن ابن دريد الازدي أغرب بأربعين حديثاً ، وذكر انه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره، وأبداها للابصار والبصائر، وأهداها للافكار والضمائر ، في معارض عجيبة ، وألفاظ حوشية ، فجاء اكثر ما اظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع لحجبها الاسماع، وتوسع فيها ، اذ صرّف الفاظها ومعانيها، في وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية، تذوب ظرفاً، وتقطر حسناً ، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولامعنى ، وعطف ساجلها، ووقف مناقلها، بين رجلين : سمى احدهما عيسى بن هشام ، والآخر ابا الفتح الاسكندري ، وجعلهما يتهاديان الدرّ ، ويتنافثان السحر ، في سمار تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، تطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما افرد أحدهما بالحكاية ، وخص احدهما بالرواية [2]

وقد دهش المسيو مارسيه حين عرضت عليه هذا النص في باريس ، وعجب كيف اتفق الناس مع هذا على ان بديع الزمان هو منشىء فن المقامات . ثم سألني ألا يمكن الارتياب في قيمة كلام الحصري في هذا الموضوع ، فأجبته بأنه تحدث بأسلوب يدل على انه كان مفهوماً في اوائل القرن الخامس ان بديع الزمان إنما عارض ابن دريد وحاكاه. فارتضى هذا الجواب ثم قال : يظهر انه ضاع علينا من تاريخ الأدب شيء كثير

وقد واصلت البحث لأرى صدى هذه الفكرة في مؤلفات القدماء فلم اجد من افردها بمجهد خاص ، وان كنت رأيت ياقوت الحموي نقل ما كتبه صاحب زهر الآداب حين ترجم بديع الزمان ، ونقلُ ياقوت لهذا النص من غير تعقيب عليه مظهر من مظاهر القبول

(١) راجع مقدمة مقامات الحريري (٢) راجع ص ٣٠٧ ج ١ من زهر الآداب — الطبعة الثانية

احاديث ابن دريد

وعندي ان من اسباب غفلة مؤرخي الآداب عن كشف هذا الخطأ ان ابن دريد سمى قصصه « أحاديث » في حين ان بديع الزمان سمّى قصصه « مقامات »

وأذكر ان استاذنا الدكتور طه حسين دهش حين اطلعته على ما وصلت اليه في تحرير هذه الفكرة : وقال ان ابن دريد كان رجل لغة ورواية ، ولم يعرف عنه انه كان كاتباً ممتازاً ، فكيف اثار بديع الزمان بما ابتكر من الاحاديث ، ثم عاد فقال : ارجع الى كتاب الأمالي للقالي وانظر الاحاديث التي نقلها عن الاعراب ، فان رأيته يروي عن ابن دريد — وكان استاذه — فاعلم اذن ان الأربعين حديثاً التي ذكر صاحب زهر الآداب انه اخترعها لم تكن شيئاً آخر غير هذه القصص التي حلّى بها القالي كتابه . فلما رجعت الى كتاب القالي وجدت حقًّا ان القصص التي احتواها مروية عن ابن دريد. من ذلك مثلاً حديث البنات اللاتي وصفن ازواجهن[1] وحديث العاشق الجميل [2] وقصة خاتم الكاهن [3] والروّاد الذين ارسلهم مذحج لوصف بعض اقطار الجزيرة العربية. وكذلك يمكن الاستمرار في استقصاء ما ذكره القالي من القصص العربية المسجوعة ، وان كان هذا لا يعين انها نفس القصص التي عارضها بديع الزمان

وقد راجعت ديوان ابي نواس لأعرف عمن رويت القصة المشهورة التي وقعت له في الحج فرأيتها مروية ايضاً عن ابن دريد[4] واسلوب القصص التي رواها صاحب الأمالي عن ابن دريد قريب من اسلوب القصة التي رواها عنه حمزه الاصبهاني جامع ديوان ابي نواس. لولا ان هذه القصة تمتاز بشيء كثير من الرقة واللين ، وهذا ليس بفرق كبير لأن موضوعها يقتضي ذلك : اذ كانت فكاهة غزلية

***

الى هنا عرفنا بالتأكيد ان بديع الزمان لم يبتكر فن المقامات، ولم تكن اصوله الفارسية هي التي أوحت اليه هذا الفن كما اشار الى ذلك في بعض محاضراته استاذنا الدكتور احمد ضيف . ولكن ما هي الفروض المحتملة فيما نسب الى ابن دريد من الأحاديث ؟ ذلك بحث سنعود اليه بعد قليل

زكي مبارك

---

(١) ج ١ ص ١٧ (٢) ج ص (٣) ج ١ ص ٤ ١ طبع بولاق (٤) راجع مقدمة ديوان ابي نواس